

# قراءة تحليلية في كتاب الأمير عبد القادر الجزائري "ذكرى العاقل وتنبية الغافل"

الأستاذ حبيب صافي  
جامعة وهران

وهو ما يؤكده صاحب تاريخ الأدب العربي بقوله: (كان الأمير عبد القادر مغرّياً بالعلوم محباً للعلماء يعظمهم ويحسن إليهم. قيل إنه كان يبلغ ما يوزع عليهم وعلى الفقراء مائتي ليرة في كل شهر. وله تأليف مفيدة في التصوف وعلم الكلام وبعض كتب أدبية منها (ذكر العاقل وتنبية الغافل) أتمه سنة 1271 هـ (1854م). وقد نقله إلى الفرنسية المستشرق غوستاف دوغا فطبعه في باريس سنة 1858م...).

فمن أهم ما خلف لنا كتابه المعروف "ذكرى العاقل وتنبية الغافل" الذي سنحاول من خلال هذه المقالة أن نربط أنفسنا بهويتنا بناءً على شخصية جزائرية فذة ومن خلال هذا الكتاب المتميز بالموضوعية العلمية الواضحة.

يعتبر الأمير عبد القادر من أعمدة وأركان تاريخنا - تاريخ الأمة الإسلامية عموماً وتاريخ الجزائر خصوصاً - هذا الوصف الذي أطلقناه على هذه الشخصية ليس وليد المبالغة ولا وليد العاطفة وإنما نتيجة لمجموعة من الدواعي الشخصية التي بنى عليها الإمام والسلطان عبد القادر حياته فهو بمفهوم الإمام عالم من علماء الجزائر وبمفهوم السياسة قائد وأمير لدولة كانت قائمة آنذاك، وبمفهوم العارفين الصوفية فهو شيخ من الشيوخ وزاهد من الزهاد الكبار.

ولنلج إلى الشق الأول من حياته وهي شخصيته العلمية فقد كان رحمه الله تعالى محباً للعلم والعلماء، يبذل كل ما في وسعه لترسيخ مبدأ التعلم ونبذ الجهل والجهال

**وصف الكتاب :** ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب وخاتمة وفي كل باب فصل وتبنيه وخاتمة خاصة:

ففي المقدمة دعوة من الأمير إلى النظر والتفكير والاجتهاد وذم وتشنيع على التقليد والمقلدين، وهنا نلمس أهمية الكتاب في ذلك العصر الذي امتاز بشيء من الركود وتفش في التقليد.

وفي الباب الأول يأتي على بيان فضل العلم والعلماء ولا بد هنا أن نبه على طريقته في معالجة هذا الباب حيث أنه لم يكن تقليدياً في عرض موضوع العلم والعلماء، والمقصود أنه لم يكن تقليدياً أنه لم يأت بتلك الطريقة التي يؤلف بها الفقهاء وشيوخ الروايات كتبهم كالاستدلال بالآيات والأحاديث وتغليب الجانب الوعظي الترغيبى وإنما استعمل أسلوباً علمياً بالاستدلال والبرهان العقلي الذي يستجيب له المسلم وغير المسلم.

وفي الباب الثاني يتناول علوم الشريعة وما يتعلق منها بمبحث النبوة والنبى.

وفي الباب الثالث عالج فضل التأليف والكتابة ببيان شاف يستثير القارئ.

أما الخاتمة فقد أتى فيها على بيان أهمية

إذا أردنا الإطلاة على هذا الكتاب فلا بد من إعطاء نظرة حول سبب تأليفه وموضوعه، يأتي هذا الكتاب إجابة متأدب عارف بالفضل ورسالة إلى الجمعية الآسيوية بباريس التي طلبت منه كتاباً بعد أن أدرج اسمه ضمن أعضائها الذين كانوا من المفكرين والعلماء قال في مستهل كتابه وبكل تواضع: (فإنه بلغني أن علماء باريز - وفقهم العليم الحكيم العزيز - كتبوا اسمي في دفتر العلماء، ونظموني في سلك العظماء. فاهتزت لذلك فرحاً، ثم اغتممت ترحاً، فرحت من حيث ستر الله علي، حتى نظر عباده بحسن الظن إلي، واهتممت من كون العلماء استسمنوا ذا ورم، ونفخوا في غير ضرم. ثم أشار علي بعض المحبين منهم بإرسال بعض الرسائل إليهم. فكتبت هذه العجالة للتشبه بالعلماء ورميت سهمي بين السهام:

فتشبهوا إن لم تكونوا منهم

إن التشبه بالكرام رباح

و سميت هذه الرسالة "ذكرى العاقل و تنبيه الغافل".

وسياتي الكلام على البراعة التي امتاز بها الأمير في هذا الكتاب.

التصنيف وفائدته وثمرته.

يمكن أن نقدم في هذه المقالة أهم معالم المعرفة في هذا التأليف وهذا من خلال بيان معتمدات الأمير عبد القادر وجوانب النبوغ فيما كتب، ويمكن تحديدها فيما يأتي :

### 1- اعتماد قواعد عقلية منطقية: تعد

أساساً للموضوعية التي يتوخاها العلماء للوصول إلى نتائج صحيحة والكتاب كله يعتبر مثلاً محسوساً لتلك القواعد فمن البداية وإلى آخره كان منهجه ثابتاً ولم يغير من طريقته في معالجة المواضيع التي أتى عليها وهذا يدل على قدرة هائلة وتحكم بالمادة العلمية، فعلى سبيل المثال حينما أتى إلى فضل العلم والعلماء قال: (اعلموا أن الإنسان من حيث حصوله في الحيز والمكان فجسم كسائر الأجسام، ومن حيث يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث يحس ويتحرك بالاختيار فحيوان، ومن حيث صورته وقامته فكالصورة المنقوشة على الحائط... وإنما شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم وبها كمال... ولما كان العلم هو كمال الإنسان كان كل إنسان محباً للعلم بالطبع ويشتهيهِ ويفرح إذا نسب إلى العلم، ولو قليلاً ولو

يعلم أن الذي وصفه بالعلم كاذب، ويحزن إذا دفع عن رتبة العلم، ويلتذ الإنسان بالعلم لذاته ولكماله، لا لمعنى آخر وراء الكمال، ولا يخفى على أهل العلم أنه لا لذة فوق لذته، لأنها لذة روحانية وهي اللذة الخالصة من جميع الشوائب والمكدرات.

وأما اللذة الجسمانية، فهي عند التحقيق دفع ألم إذ لذة الأكل دفع ألم الجوع...

### 2- ظهور التجديد في الكتابة :

ذكرنا سابقاً أن الأمير لم يكن تقليدياً في التأليف، وهو ما يجده المتبع لمضمون الكتاب، وسيظهر له جلياً تميز الأمير عن بني جيله من حيث طريقة الكتابة فكل من عاصره تقريباً لهم طريقة في الكتابة مثل طريقة سابقينهم، وبعبارة أخرى أن الأمير كان أكاديمياً في تأليفه لهذا الكتاب، لأن مظهر التجديد الجلي والواضح لكل قارئ هو المعالجة الرائعة للموضوعات بمنأى ومعزل عن جوانب من شخصيته التي عرفت بالتصوف من جهة وبالسياسة من جهة أخرى وبالقضاء أيضاً، لم نجد في الكتاب أن الأمير قد تأثر بالمتصوفة أو الفقهاء أو القضاة أو السياسيين، بل كانت شخصيته في هذا الكتاب على الأقل

معرفة الله تعالى و معرفة حكمته في أفعاله و في خلق السماوات و الأرض و ما فيها، و ما بينهما، هذه المعرفة لا تدرك بحاسة من الحواس، و إنما تدرك بالعقل، فكان العقل -لهذا- أشرف و مدركاته أشرف و لما كان البدن مركباً للنفس و آلة لتحصيل الأعمال الصالحة خلق الله للإنسان الحواس الظاهرة و الباطنة و أكرمه بالعقل الذي هو أشرف من الكل، فخلق له حاسة اللمس، حتى إذا مسته نار محرقة أو سيف جارح أحس بذلك و هرب، و هذا أول حس يخلق للحيوان، فلو لم يحس أصلاً لم يكن حيواناً و أقل درجات الإحساس أن يحس بما يلاصقه و يماسه، فإن الإحساس بما يبعد منه إحساس أتم، و هذا موجود في كل حيوان، و لو لم يخلق للإنسان إلا هذا الحس لكان ناقصاً، لا يقدر على طلب الغذاء، من حيث يبعد عنه...).

ب- الموضوعية العلمية تستدعي الاستدلال بما هو متفق عليه والإعراض عما هو مختلف فيه وهو ما اعتمده الأمير في هذا الكتاب، والدليل على ما قلنا أنه تعرض لمسألة مهمة من مسائل الموضوعية التي توصل إلى النتائج الصحيحة وهي "تحكيم الرجال للحق وليس العكس" وهي

شخصية موضوعية إلى درجة كبيرة، نتأمل ما جاء به في إثبات النبوة فنجد التجديد ماثلاً أمامنا حيث يقول: (اعلموا وفقكم الله أن النبوة هي عبارة عن طور تنفتح فيه عين أخرى زائدة على طور العقل ونظره، ينظر بها النبي ما يكون في المستقبل من أمور العقل معزول عن إدراكها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات و كعزل الحواس عن مدركات التمييز و انظروا إلى ذوق الشعر كيف يختص به قوم من الناس و هو نوع إحساس و إدراك و يحرم منه بعضهم...).

### 3- اعتماد أمثلة محسوسة وواقعية :

أتى الأمير في كتابه على بيان كثير من الحقائق العلمية التي كانت تستحق منه الكثير من الاستدلال بمنقول القرآن والسنة ولكنه أعرض عن ذلك، متوخياً الأدلة العقلية الخالصة، وفي تقديري أن هذا الإعراض منه له مسوغان :

أ- أن الكتاب موجه إلى مفكرين وعلماء عالميين تختلف أديانهم ومشاربهم الفكرية فمراعاة لحالهم ومبالغة في إفحامهم بالحجة والبرهان بعيداً عن أدلة لا يؤمنون بها أصلاً ففي خضم بحث شرف العقل قال: (و أشرف العلوم النافعة

#### 6- تقسيمات علمية :

سبق أن قلنا أن الأمير كان موضوعيا وما يؤكد هذا هو اعتماده على التقسيمات العلمية في تقرير الحقائق والاستدلال لها ولا بأس أن نضرب مثالا أو مثالين عن ذلك، فقد قسم الأمير الناس إلى قسمين: قسم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره وهو الذي عرف الحق بالدليل لا بالتقليد وقسم مهلك لنفسه ومهلك لغيره وهو الذي قلد آباءه وأجداده فيما يعتقدون ويستحسنون، وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده فالأساس إذا في امتلاك الحق هو العقل الذي لا يرضى بأي مظهر من مظاهره إلا بالدليل العقلي الصحيح. إذاً فإن معيار الحقيقة - لدى مؤلف ذكرى العاقل وتنبية الغافل - هو العقل المتحرر من التقليد المتبع للبراهين والأدلة التي لا يماري في قبولها ذوو العقول السليمة، لاسيما وأن لدى البشر استعداداً لإدراك الحقائق فإذا كان الأمر كذلك فكيف ينشأ الجهل إذا؟

للإجابة عن هذا السؤال ذكر الأمير خمسة أسباب لنشأة الجهل :

1. نقصان في ذات القلب، كقلب الصبي، وكلمة القلب هنا لها دلالة عقلية

عين الرجوع إلى العقل الصحيح وتحكيمه، وهذا من بداية الكتاب إلى آخره اللهم إلا ما اضطره الدليل العقلي إلى استعمال آي القرآن المعدودة على الأصابع.

#### 4- سلاسة العبارة وسهولة الأسلوب :

القارئ للكتاب مهما كانت ثقافته ودرجته العلمية فإنه يستطيع أن يفهم مضمون الكتاب وأن يتابع الأمير فيما أتى عليه من معلومات، والسبب هو سهولة العبارة والبعد عن الإغراب وعن المحسنات البديعية والصور البيانية المعقدة، وإن شئت قل كان مباشراً في عرض المعلومات، وهو ما يسهل ويعمل على بلوغ مقصود الكتاب إلى ذهن القارئ.

#### 5- موافقة العنوان لمضمون الكتاب :

قلما نجد مؤلفاً قد وفق إلى اختيار عنوان يوافق مضمون مؤلفه بحيث تستطيع أنت أيها القارئ أن تتصور محتوى ما أنت مقبل على قراءته، إن العنوان الذي اختاره الأمير عبد القادر لكتابه لا يفارقك صفحة واحدة وأنت تقرأ وتأمل ما جاء فيه، في رأيي أن الأمير قد وفق كثيراً في اختيار العنوان لأن مطابقة المضمون للعنوان كانت مطابقة عجيبة.

ما تميز به الأمير.

كما ينبغي الاهتمام بموروثنا العلمي والثقافي دراسة وبحثاً وتحقيقاً حتى يعود كل مسلم إلى هويته المعروفة عبر التاريخ، والتي لا زلنا نعاني من إهمالها في حياتنا، ولا يعني هذا بحال أن كل المسلمين قد حادوا عن أصلهم، و لكن تأثير الحضارة المادية قد أرخى سدوله على الطبقة الشابة التي أصبحت لا تفكر إلا في الخروج من هذا البلد أو ذاك، خاصة وأن بلادنا قد استجمعت كل مقومات الحضارة، فالحركة العلمية الفكرية لا تسكن وقد هبت رياح الأمل على هذه الأجيال التي تعد بالكثير.

هذه بعض من نسمات الفكر العربي الإسلامي الأصيل التي أردت أن ألفت بها نظر النخبة المثقفة إلى علم من أعلام الجزائر عليها تكون بداية لكتابات أخرى أكثر عمقا عن شخصيات أخرى بعضها لا زال مغمورا في كنفات خزائن المخطوط كالشيخ ابراهيم التازي وأعلام معسكر المشارف المعروفين بالعلم والجهاد وغيرهم ممن لهم فضل في تكوين الذاكرة الوطنية الصلبة، التي نطمح إلى زرعها في أذهان الأجيال حتى يكون لهم عز بأوطانهم عامة وبالجزائر خاصة.

من حيث اعتبارها مكانا للمعرفة.

2. كدورات الأشغال الدنيوية والخبث الذي يتراكم على وجه القلب منها.  
3. العدول بالقلب عن جهة الحقيقة المطلوبة.

4. الحجاب ومعناه أن يكون العقل محجوبا باعتقاد مسبق، إما أن يكون ناشئا في الصبي أو عن طريق معرفة متلقاة بطريق التقليد، وهذا أعظم حجاب جعل أكثر الخلق بعيدين عن الوصول إلى الحق وهو : "تؤكد القاعدة المؤصلة للتقليد : "مذهب غيري خطأ لا يحتمل الصواب، ومذهبي صواب لا يحتمل الخطأ".

5. الجهل بالجهة التي يقع فيها العثور عن المطلوب .

#### الخاتمة:

بعد هذه الجولة القصيرة مع عالمنا الجزائري القائد، لابد أن ننوه بما هو مسطور في هذا الكتاب من الحقائق العلمية - وإن كان في بعضها خلاف بين العلماء- التي تستحق البحث والتعمق الشديد، خاصة و أن الإمام عبد القادر قد كفانا مؤنة الغوص الكثير المتعب من خلال تلخيصه الذي لا خلل فيه، لا من جهة المعنى، و لا من جهة المبنى، وهو ما يعبر أساسا عن شخصية علمية من مجموع